السفير العربي

جريدة لبنان في الوطن العربي وجريدة الوطن العربي في لبنان

الخميس 15 أيار 2014 ـ الموافق 16 رجب 1435 هـ ـ العدد 12772

AS-SAFIR Arabic political daily – May 15, 2014 N° 12772

1 | 17

«في الطريق الى عفرين» تحكي مأساة أكراد سوريا من بين سواهم. ومبادرة «زمزم» السياسية تشق الاخوان المسلمين في الاردن. وبخصوص كورونا في السعودية.
2

تقديم لسيناء «شبه جزيرة الغموض»، الجزء الأول من ثلاثية حول هذا المكان المشتعل. وبؤس الانتظار لدى عائلات المفقودين في الحرب العراقية. الإيرانية، المتجدد مع كل إشاعة.
3

«إلى القرية المجاورة»، أو كيف دمرت إسرائيل قصداً مفهوم القري. والسفير العربي تطلق (#فلسطين_بلادنا)، فغرّدوه! كل صور العدد ولوحاته ومدوناته مخصصة لذكرى يوم النكبة.
4

«استحالة» إسرائيل

ليس الموضوع الحق الفلسطيني. فهذا لا تُغيِّر فيه خرافات الصهاينة ولا اعتداءاتهم. بل المطروح الآن بإلحاح يتعلق بتلمس ما يَظهر من «استحالة» إسرائيل. استحالتها ليس فحسب بنظر وإرادة رافضيها ومناهضيها، أو ضحاياها المباشرين، ليس فحسب بسبب ما تمثله من ظلم صافٍ... وإنما بسبب ما انتهت إليه الظاهرة كمعطى سياسي موضوعي، وهو مآل كان متضمَّناً أصلاً في بذرة نشوئها واحتاج وقتاً (قليلاً) ليتعرى وينكشف. إسرائيل اليوم لم تعد حتى تدَّعي أنها نموذج تعاوني مساواتي ومكان للعدالة الاجتماعية لليهود أنفسهم، ولا لبناء «مجتمع جديد». التحركات الاجتماعية الكبيرة التي انفجرت منذ سنتين وطافت تظاهراتها واعتصاماتها في شوارع تل أبيب مؤشر على التصفية اللاحقة بالتقديمات الاجتماعية العالية التي بدأ بها المشروع. لم يعد هناك طبابة مجانية لائقة (لليهود)، ولا تعليم مجاني لائق (لهم، وليس لعموم السكان). وهناك من بينهم فئات واسعة مهمَّشة ومضطهَدة حد التمييز العنصري الصريح، وهناك فقراء فقراً مدقعاً. إسرائيل باتت شركة «هاي تك» تبيع «النانو تكنولوجيا» العسكرية والمدنية على السواء... وتبيع كذلك خبرات مكافحة «الشغب» وحرب المدن. ولديها جيش هائل قوامه الخدمة الإلزامية والاحتياط، ولكنه يبدو غير مستعد لأي قتال جدي، إذ اضطربت والحال تلك صدقية الأهداف التي كانت الحركة الصهيونية قد تمكنت من تحفيز أتباعها حولها (بغض النظر عن جدارتها).

هذا العراء يمثل وصول المشروع الصهيوني إلى نهايته. اصطدامه بنفسه. حتى باتت إسرائيل عبئاً على صانعيها أنفسهم وحماتها في الغرب الذين صاروا يوجهون الانتقادات العلنية إلى مواقفها «غير المعقولة»: لكن هذه المواقف ليست أمراً طارئاً أو خيارات، بل هي عُصاب يصل حد الجنون. وهو نتاج تناقضات لا حل لها: معسكر مغلق مدجج بالسلاح، يقوم وسط محيط معاد، على أرض مغتصبة لم يتمكن من تصفية سكانها الأصليين، ونيوليبرالية وفساد وبزنس...

نحن، ضحاياها، كنا «نعرف». لم نُخدع أبدا برغم كل المحاولات، وقد كانت أوسلو آخرها. وقبلها قيل «الجيش الذي لا يُهزم»، وقبل إنها نقطة توافق بل إجماع دولي (بما يشبه القدر!). استُخدم التيئيس كوسيلة للإخضاع يرافقه التشكيك في المرتكزات والعنف المنفلت. لكننا كنا «نعرف». اسألوا الصبي بجانب جدته. هي عاشت النكبة وهو سيعود.

نهلة الشهال

محمد بدرانة ـ فلسطين («خاص السفير العربي»)

وجوه العودة إلى فلسطين

العودة أساس الإرادة الفلسطينيّة. ولهذه الإرادة وجهان: وجه معنويّ فقط، ووجه فعليّ. الأول يُغمض عينيه ويحلم، والآخر يحدّق بالمستقبل بشجاعةٍ ووقاحة. الوجه المعنويّ مهزوم خجول يلبس قناع الحنين والسرديّات الطاهرة عن وطن تحوم فيه الفراشات، بينما يكشف الوجه الفّعليّ للعودة عن ندبات النكبة، وجهاً عارياً خشناً ممزقاً. على هذا المحور، بين هذين الوجهين، يتحرك الخطاب السياسي الفلسطيني.

يلبس الوجه المعنوي قناعاً ورديّاً ليغطّي الندوب التي جعلته يبدو وحشاً. يتسوّل اعترافاً بإنسانيّته وحقوقه، لعله يستعيد شيئاً منها. ولأن الحقّ يُستعاد ممن سلبه، فإن الوجه المعنويّ يتسوّل الاعتراف من الصهيونيّة، حتى وإن كان ذلك بطرقٍ التفافيّة تُسمّى «محافل دوليّة». بينما الوجهُ الفعليّ، الذي يرى بالعودة فعلاً يُمكن تحقيقه في الغد القريب، فيبقى مكشوفاً رغم كارثيّته وبشاعته، وهو يستطيع ذلك لأنه لا ينتظر اعترافاً بإنسانيّته من أعدائها. وانتظار الاعتراف أو عدمه ليسا قرارات سياسية، بل هما نمطان مختلفان من وعي القابعين تحت الاستعمار.

وجه الهزيمة المقنّع بالحنين يرى النظام الاستعماريّ مؤنسناً، له وجه حقيقي وفيه عينان، كأن الصهيونيّة تشعر بالشفقة أو بالخوف، تتراجع أو تتقدّم، ترحم أو تقسو. والوجه المنكوب الوقح، ذاك الذي لا يبحث عن اعتراف خارجيّ، يرى الصهيونيّة اسمنتاً وحديداً يغلّف آلة واحدة كبيرة. آلة لا تفكّر ولا تشعر، آلة لا تمت للإنسانيّة بصلة، محكمة الإغلاق ولا عيون لها. أما من يرى للصهيونيّة عيوناً فإنه يرى صورته تنعكس فيها وينشغل بالتفكير: كيف أبدو في عيونها؟

مستحيل؟

ترتبط وجوه العودة بتوقعات الفلسطينيين لمستقبل الاستعمار الصهيوني في فلسطين. بين من يقول باستحالته ويتوقعه ينهار بعد عقودٍ قليلة، وبين من يرى وجوده قدراً لا يمكن تغييره. بين من يرى بالنظام الصهيوني آلة، والآلات لا بد أن تتوقف في يوم من الأيّام، وبين من يرى الصهيونيّة مؤنسَنة والإنساني لا يزول. وليس التصديق باستحالة الصهيونية أمراً سهلاً، خاصةً لمن يعيش داخل الأراضي المحتلة عام 1948، حيث تهيمن السلطة الإسرائيليّة على كل شيء، على اللغة واللقمة، في أغلبيّة يهوديّة مجندة ومعسكرة، بجهاز دولة أخطبوطي ومؤسسات قوميّة، حكوميّة وخاصّة. المجتمع الفلسطيني في الداخل، مجتمع الفلاحين الصغير والمهزوم، ليس من السهل أن يقتنع أن هذا العملاق الكاسح يُمكنه أن ينهار بين ليلةٍ وضحاها. لكن من يتنبّه لجبروت شموليّات القرن العشرين ويتذكّر سقوطها، يتأكد أن عملاق تل أبيب الكاسح يبدو قزماً في امتحان التاريخ.

آلة الصهيونيّة آخذة بالتضعضع، لأنها لم تعد قادرة على تصدير تناقضاتها، وتناقضها الأساسي بين شكلها الديموقراطي (الذي يشرعن وجودها في العالم) وجوهرها الأيديولوجي العنصري (الذي أوجدها). الصراع يقترب جغرافياً من قلب الدولة، وعليه فإنه يضرب في عمق بنيتها السياسيّة – الثقل النضالي الفلسطيني كان على كاهل مخيمات الأردن ولبنان، ثم بتغيّر المرحلة حطّ الثقل على ظهر الضفة وقطاع غزّة. ضاقت الدائرة حول إسرائيل جغرافياً. واليوم، لا إمكانيّة لتجاهل الحركة السياسيّة الصاعدة عند الفلسطينيين في الداخل، وهم يحملون المواطنة الإسرائيلية، في الوقت الذي قُمع فيه اشتباك الضفة وقطاع غزّة مع إسرائيل. هذا الرصّ الجغرافي يترجم تغييرات سياسية. ما كان في السبعينيات يُحل بمرسوم عسكريّ إسرائيلي سريع، وتعليمات عسكريّة قابلة للتغيّير كل شهر، أصبح اليوم، أمام فلسطيني الداخل، يحتاج لإجراءات تشريعيّة وسنّ قوانين، أي تغييرات يمينيّة في الحكم، باتجاه تحقق الفاشيّة وتقنين العنصريّة بوضوح وبالعلن. في الأسبوع الأخير وصل الأمر بنتنياهو إلى أن يقدّم اقتراحاً لتعديل تعريف إسرائيل في قوانين الأساس، وهي قوانين تحل مقام الدستور. هذه الآلة الآخذة بالتضعضع لسنا وحدنا من يشعر بوهنها، بل مئات آلاف الإسرائيليين الذين ينقبون عن جنسيّات أوروبيّة يحتفظون بها لساعة الصفر. في استطلاع للرأي أجراه أحد أهم مراكز الاستطلاعات الإسرائيليّة بين طلاب الجامعات في آذار/مارس الماضي، فقط 13 في المئة من المستطلعين عبّروا عن عدم رغبتهم بالحصول إلى جنسيّة أخرى غير الإسرائيليّة.

هويّات موقوتة

ورغم هذه المؤشّرات، لا يزال التفكير الفلسطيني بالعودة يبدو وكأنه منام يستحضر صور الماضي السحيق. فالعودة حُلم، لكن ليس كل حلم بوسعه أن يحمل الأمل. فإن شئنا التحديقَ بالمستقبل، علينا أن نقف على أرض الحاضر الصلبة، الخشنة والحارقة، متجرّدين من حواجز نشأت خلال السعي للتحرر. فالطريق إلى الحريّة الوطنيّة مرصوف بالإشكاليّات الاجتماعيّة المروّعة التي تؤجّل إلى حين التخلّص من الاحتلال، وتنشئ خطاباً يتجاهل الكوارث البنيويّة التي حلّت خلال هذه العقود.

مثلاً، يرفض الفلسطينيّون الاعتراف بنشوء هويّات جديدة داخل الشعب الفلسطيني: ضفة، غزّة، داخل، لجوء المخيمات (والسوري غير الأردني، والأخير غير اللبناني)، جاليات أوروبّا والعالم... هذه ليست أماكن تواجد فحسب حتى لو كررنا ليلاً نهاراً أننا كلنا شعب واحد، ونسقّنا معاً عبر الانترنت تظاهرات في الساعة ذاتها. على الفلسطيني أن ينظر إلى مستقبله ويرى هذه المجموعات تنقسم، ينظر إلى الفجوات العميقة التي تمزق الشعب الفلسطيني اليوم. منذ النكبة، ونعترف أن هذه الفجوات تفصل بين هويّات تكوّنت في ظروف سياسيّة مختلفة وسياقات قانونيّة مختلفة وبينها فروق طبقية عميقة وتباينات في الخلفيات الاجتماعيّة وفي ماضي العلاقة مع الإسرائيليين، وفي مصادر تبلور الهويّة الوطنيّة ضمن أنماط مختلفة من التنظيم السياسي، وبالطبع هناك التفاوت العميق في تجارب المقاومة وحجم التضحيات التي قدمت. فهل سينسى ابن غزّة أن عدد من قتلتهم اسرائيل في يوم واحد من أيّام حرب 2009 هو أضعاف ما قتلت من فلسطيني الداخل على مدار سبعين عاماً؟

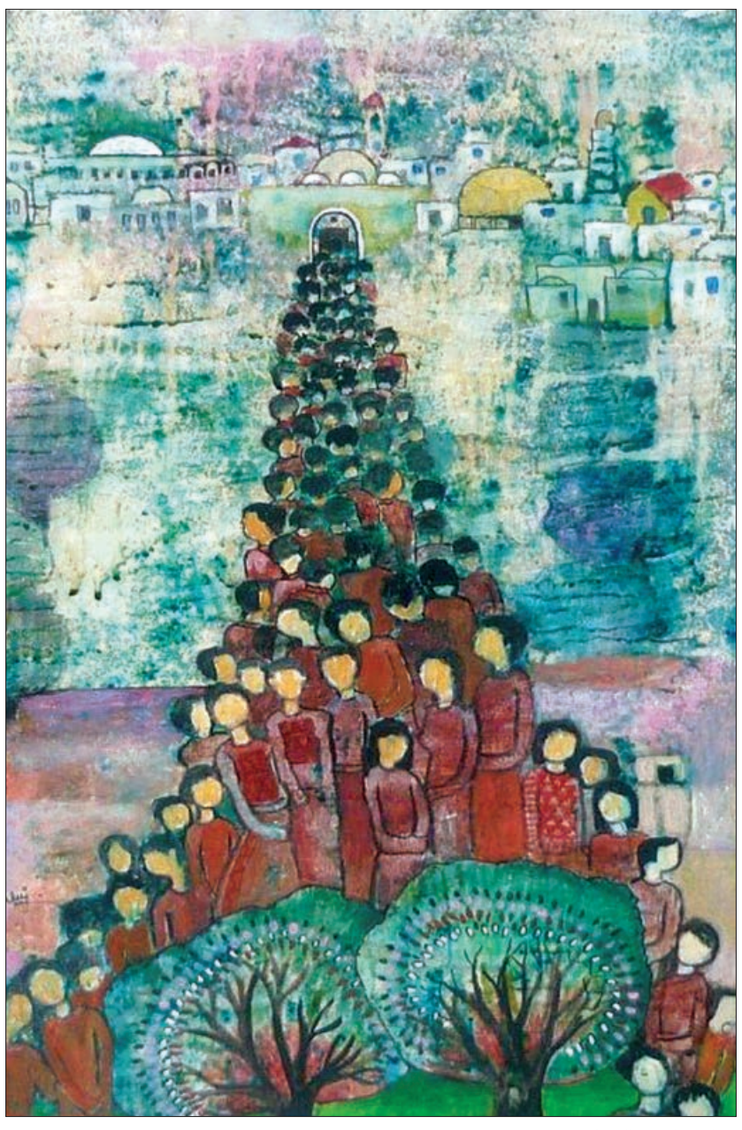

نبيل عناني ـ فلسطين

نتجاهل كل هذه الهويّات المكنة، ونتجاهل ما يمكن أن تترجم إليه سياسياً. هذا كله قبل أن نفكّر في أن جزءاً كبيراً من اليهود سيبقى في فلسطين، جزءاً من البلاد العربيّة، يُعطى فيها حقوقه الكاملة. حقوقه، وليس امتيازاته. ولكننا نفضّل أن نتجاهل، ونمضي في المضغ الثقافي للرموز الغابرة. نمجّدها لأنها تحفظ الذاكرة المستهدَفة، لكننا في الوقت نفسه نعرّض أنفسنا لخطر جسيم. فالرموز هنا تعبّرعن الشوق للمفقود، أي أنها تتحدث عمّا هو ليس واقعاً. لكن هذه القيمة الرمزيّة التي نمجّدها، لو أننا استيقظنا غداً في فلسطين الحرّة، وصار لهذا الرمز قيمة ماديّة – سيتحول تمجيد الرمز إلى تمسّك أصوليّ رجعيّ بالقيمة الماديّة. فكيف تُقنع من قضى العمر يُقسم بـ«توتة الدار»، أن التوتة يجب أن نقتلعها لنبني مصنعاً للكاوتشوك؟ في أحيان كثيرة، يكون التخلّص من الأيقونات المبتذلة ترفاً للمثقفين. لكنه في أحيان أخرى، مثل حالنا اليوم، ضرورة سياسيّة على الفلسطيني أن يرفعها ليقول إن العودة ليست حلماً، بل هي أمل عمليّ واجب.

الحاضر والغائب يلتقيان

وادي النسناس هو أكبر وأعرق الأحياء الفلسطينيّة الباقية في حيفا اليوم. حتى 22 نيسان/ابريل 1948، يوم سقوط حيفا، هُجر نحو 66 ألف فلسطيني من المدينة، وبقي فيها 4 آلاف فقط. بعد انتهاء القتل جمعت العصابات 2600 فلسطيني ممن بقوا في جميع أنحاء المدينة، ووضعتهم في حيّ وادي النسناس الذي هُجّر أهله كلياً. أحاطت الحيّ بسياج وأسلاك شائكة، وعاشوا هناك. تحت أي سقف؟ لم يكن أمامهم سوى البيوت المهجورة داخل الحيّ. «لوقتٍ قصير» قالوا، مثلما قال جميع الفلسطينيّين. أراد هؤلاء، مثلما أراد الجميع، أن يعودوا إلى بيوتهم الأصليّة في الأحياء المختلفة، إلا أنهم أصبحوا يحملون تعريفاً جديداً منذ العام 1950: حاضرون غائبون.

في ذلك العام، بدأ تطبيق «قانون أملاك الغائبين» لمصادرة كل أملاك اللاجئين. أثناء الجرد، كل من نقلوا إلى وادي النسناس لم يكونوا في بيوتهم الأصلية بطبيعة الحال، فأعلنتهم إسرائيل «غائبين»، رغم أنهم لا يزالون في المدينة. فلم يبق لهم مكان يعودون إليه، وكان الحل الوحيد أمامهم أن يستأجروا من سلطات الدولة الجديدة البيوت التي صادرتها في وادي النسناس، ويبقوا مكانهم في أملاك غيرهم من اللاجئين.

80 في المئة من العائلات في الحيّ يعيشون بأملاك غيرهم من اللاجئين. يشبه هذا الحال أحياء كثيرة في حيفا وعكا ويافا. عائلات نشأت وكبرت من الجدّ حتى الحفيد في هذه البيوت. منذ النكبة يعيشون ظروفاً مزرية، ويرفضون، رغم ذلك، الخروج من هذه الأحياء الفلسطينيّة والتنازل عنها للإسرائيليين مقابل بدائل ماديّة. في يوم قريب، سيدقّ لاجئ شاب من لبنان باب بيتٍ في وادي النسناس. سيكون شاباً في الأربعينيات مُنع طوال حياته في لبنان من أن يمتلك بيتاً، وهو يريد استعادة بيت جدّه. «لكننا هنا منذ تسعين عاماً»، سيقول له اللاجئ الآخر على عتبة الباب.

ثم ماذا عن الأرض؟ أليست جوهر الصراع؟ أبين العائلات أيضاً؟ ماذا عن الأراضي التي صادرتها إسرائيل ويريد الأحفاد استعادتها؟ ماذا عن نظام الأراضي العرفيّ الذي لن يَبُتَّ من العارفين فيه، بعد عمرٍ مديد، أي شخص؟ ماذا سنفعل مع انعدام التوثيق وشحّ المعلومات؟ ماذا عمن باعوا أرضهم للإسرائيليين قبل النكبة؟ وكيف سنعرف من باعها بسوء نيّة ومن خدعه سمسار فباع؟ أي نظام أراض نريد في بلدنا؟ هذه كلّها سيناريوهاتٌ ممكنة، أسئلة، ستتحوّل في حال انهيار النظام الصهيوني إلى متغيّرات سياسيّة، تطالب بسلطة وتطالب بضمان حقها. مصالح لهويّات ولدت في لحظة النكبة، ولن تتأخر الأسلحة والدسائس لتنفجر بنا نحو الجحيم. فكيف نتجاهلها اليوم؟

وجه العودة، ملامح التاريخ

إن الوجه المعنويّ الذي لا يرى العودة بقسوة واقعيّتها ينتمي لقراءة ثيولوجية للتاريخ. فيها انتصار للخير الأولّ (فلسطين قبل النكبة) على الشر، وخروج منتظَر إلى النور. هذه قراءة تكرّس هزيمة المهزوم، وتحوّل المنتصر إلى مكانةٍ عُليا تمكنه من الانطلاق بالقمع. بهذه الطريقة مثلاً يرتب الصهاينة أعيادهم: عيد الفصح أولاً، التيه والخروج من الصحراء، ثم يعلنون الحداد في ذكرى المحرقة (رمز الاضطهاد والشر المطلق)، ثم يعلنون الحداد لذكرى قتلاهم في المعارك (التضحية في سبيل الخير) ثم يحتفلون باستقلال إسرائيل (بمعنى حلول الخير المطلق). أما نحن فعلى طريقنا أن تكون مختلفة: في قراءة التاريخ بكليّة الحاضر وتضاريسه المركبة، وفي رؤية العودة بقيمتها الفعليّة، فيما ستحمله من احتمالات خراب وامكانيّات ازدهار. لأن ذلك ما يذكّرنا أن الحرب ضد الاستعمار ستنتهي، ولكن لا الظلم ينتهي ولا أخلاق النضال تنتهي. لماذا يهم التذكير؟ لأن النضال ضد الاستعمار هو أولاً وآخراً نضال أخلاقي ضد منظومة قهر، ولا يمكنه أن يكون عصبيّة عنصريّة بأي شكلٍ من الأشكال.

مجد كيال

كاتب فلسطيني من حيفا

العربي السفير

ملف

أيها المارون بين الكلمات العابرة / احملوا أسماءكم وانصرفوا /
واسحبوا ساعاتكم من وقتنا، وانصرفوا
وخذوا ما شئتم من زرقة البحر ورمل الذاكرة / وخذوا ما شئتم من صور، كي تعرفوا /
أنكم لن تعرفوا كيف يبني حجر من أرضنا سقف السماء. (محمود درويش)

في الطريق إلى جبال عِفرين

محمد بدرانة ـ فلسطين (خاص «السفير العربي»)

أطال المهندس الكردي لحيته، بعد أن نزح من بيته في حي «الشيخ مقصود» أثناء عملية «التحرير» التي قامت بها الكتائب المقاتلة، عائداً مع زوجته وأولاده الثلاثة إلى مسقط رأسه في قرية «صوغان» في جبال «عفرين». لم يكن قد انجذب إلى إرخائها في مرحلة سابقة، حين كان اليساريون يطبلونها في استرسال سهْل خلف هيئة غيفارا ورجالات الثورة الكوبية.

احتفظ بها حليقة وناعمة ومعطرة، لكنه الآن بلحية لا يحسن تشذيبها، ولا ينفك يفركها كأنها عبء ثقيل على وجهه، وأضحى مهموماً كتلميذ يستعدّ لامتحانه، يمسك حزمة الأوراق بيده، ويستظهر عدد الركعات في كل صلاة والأدعية المرافقة لها، وبعضاً من الأحاديث التي تتحدث عن الأخوة بين الشعوب والصفح والمغفرة، وقصارى سور القرآن، علّها تفيد في تليين قسوة القاتلين، وتذكرهم بالحيز الذي يُنسى عادة في الحروب، وحَدّة الاستقطابات في الصراعات حين تأخذ منحى عقائدياً.

أنسى كل ما أحفظه، حالما يقف «الميكرو» (الباص الصغير) أمام الحاجز، ويصعد المقاتل المشعث الشعر ليجمع البطاقات الشخصية، ويتفرس في الوجوه، ويختار من يأمره بالنزول، أو يوعز بمتابعة الرحلة... يقول ذلك وهو يحني رأسه على حزمة الأوراق المركونة فوق فخذيه المتلاصقين، مدلكاً صدغيه برؤوس أصابعه.

ربما قصد الخوف الذي يُحوّل هذه المعلومات التي تدرب متأخراً على حفظها إلى أثير، إذ لا ذاكرة تسعف من يُطلَب ترجَله من «الميكرو»، وسوقه إلى الرواق الذي تصطنعه أشجار السرو المتوازية، ليمثل أمام الأمير، في صالة المزرعة الفاخرة التي استولت عليها الكتيبة المقاتلة.

يقول بيأس من هذا الاستظهار والحفظ ليؤكد عبثية الحياة، بعدما صار يستدرج سكان القرى إلى غسق المجهول: جرى في الأسابيع الماضية، اختطاف «ميكروبَيْن» بكامل ركابهما، ولم يُسمع عنهم أي خبر حتى الآن.

أضحى آلاف من المضطرين للقدوم إلى المدينة كل أسبوع للدوام في المؤسسات التي يعملون بها، حفاظاً على مصدر دخلهم الوحيد، والتأمين على تعويضاتهم وحقوق تقاعدهم، رهائن لحصارَين: مؤسسات حكومية بتعليمات واضحة تقضي الفصل من الوظيفة لكل من يتغيّب لأسبوعين متواصلين عن عمله، وحواجز لاصطياد الجاهليين... ترى ما فعلته الدول الإسلامية المتعاقبة خلال ألف وخمسمئة عام... وكيف لم تفطن لهؤلاء الجاهليين وهم يعيشون بين ظهرانيها.

وسانحة للتساؤل كذلك عن مصائر الأموال الهائلة التي وظفت من عوائد الريوع النفطية، ودورها في تثبيت ذاكرة دينية انتقائية، استثمرت في برامج توخت التبشير والتثقيف فضلاً عن الدعاية والتحريض، وباتت أركاناً ثابتة في معظم المحطات التلفزيونية والإذاعية، وعن دور النشر وكتبها ومجلاتها ونشراتها الورقية وأقراصها المدمجة التي وزّعت بأسعار تقل عن أكلافها، والإعلانات التي تنتصب في مفارق الشوارع والطرق العامة، فضلاً عن مقررات التربية الدينية التي يلزم الطلاب بدراستها وحفظها والامتحان بها لإثنتي عشرة سنة دراسية، تبدأ من الصف الأول وتنتهي في الصف الثاني عشر المعروف بـ«البكالوريا»... كل هذا وسواه ليؤكد بعدها المغتبطون بثقة استثنائية: الدين فطرة!

ـ فطر الإنسان على التملك الخاص والتديُّن.

تتكرر العبارة، وكأن في نية من يلقنها إلحاحاً على عدم نسيانها، من دون الالتفات لمدوّنات التاريخ، التي طالما أكدت المسافات الطويلة في الزمن بين ظهور حياة الجماعات البشرية وبين السيرورة المتأخرة للمقاربات الدينية لأحوالها، وبين الزمن الأطول للملكيات العامة والزمن الأقصر للملكيات الفردية. ينسون كل هذا في اللحظة عينها التي يطلب منهم تذكّره، ويتسلل النسيان إلى صفحات ذاكرتهم. أم أن كل هذا التلقين الخمول لم يبارح شفاههم اليابسة، المختلجة بخوف لا يتبدّد.

يجهل الناس دينهم وتاريخهم القريب، ولا يتذكرونهما في هذه الامتحانات المروّعة. ويتحوّل التدين إلى وسيلة للتمييز بين مؤمن وكافر، لتأخذ جماعات بعينها مهمة إعادة تربية المجتمع والوعظ عليه وتأديبه والقصاص منه، بعد لعنه وتكفيره وتشكيكه في قناعاته المتوارثة. هذه التساؤلات لا تهمّ الآن، المهم اجتياز الحواجز بسلام والوصول إلى الأهل.

ارتشف قهوة الإسبرسو، منحنياً على طاولته في المقهى وتابع وكأنه يقرأ على ورقة أمامه:

– الدين المتحول لأيديولوجيا جماعات سياسية، دين يتعرّض للغش، كما هو اللبن والخبز واللحوم في هذه الأيام، دين خارج عن سياقه التاريخي ووظائفه، وتائه في هذه العقارات السياسية.

طالما ضحكوا في زمن خلا، وهم يحثون الخطى في الشوارع المكتظة، على ما أسموه «دويلات ميم»، وكانوا يعنون أنظمة الحكم العربية التي صار ديدنها إنتاج ثلاثي مخذول، وتوزيعه بعدالة على رعاياها: مخبر ـ مفتٍ ـ مغنٍّ.

لم يعد الزمن الذي تستغرقه الرحلة قصيراً، الطريق الذي كان يقطع بثلاثة أرباع الساعة، يحتاج الآن لتسع ساعات، وهو كافٍ للتعرف على الأنماط المتنوعة للكتائب المقاتلة وسلوكها واجتهاداتها، وجولة في الريف الذي حوّله الصراع الحربي غير المتكافئ إلى خرائب، وكذلك فرصة للتأمل، يتيحها الطريق قليل الحواجز الذي يسيطر عليه الجيش، من ريف حماه الشرقي إلى حلب.

ويتذكر لاصقاً وجهه بزجاج النافذة الملطخ من الخارج برشقات الطين، موجة الهوية القومية بعد ثمانينيات القرن الماضي، وكيف انعكست بتأكيد مواطن على تسمية المواليد الجدد بأسماء كردية، والاندفاع لتعلم اللغة الكردية والكتابة بها وقراءة آدابها، ومتابعة التدوينات التاريخية عن موقع الإمارات الكردية ودورها في تاريخ الدولتين العثمانية والصفوية، وكل ذلك استكمل بسماع الأغاني الكردية والترويج لها، والعمل على إظهار الشخصيات الكردية المؤثرة في التاريخ، بإعادة تنضيد هوياتها التائهة في أيديولوجيا السلالات العرقية التركية والفارسية والعربية المسيطرة. كل ذلك للتأكيد أننا، نحن المطرودين من التاريخ المكتوب، لسنا موتى، ولا مغْفلي السيرة، ها إننا ننبثق من تحت الأنقاض التاريخية/الأيديولوجية، لنستكمل مسيرة الحرية.

ويتذكر كذلك دور دخول حزب العمال الكردستاني كتشكيل سياسي جديد على الخارطة الحزبية، في تحريكها وإعادة جذبها نحو محددات وأولويات مختلفة، ساهم إيجابياً في إخراجها من سوار تجاذبات مركزَي الإقطاع السياسي في العراق، التي انبثقت أغلب تشكيلات الحركة السياسية الكردية في سوريا من مقارباتها وانحيازاتها، ودفع بحزمة متماسكة من القيم التحريرية كضرورة التعليم، وتمكين المرأة وإطلاق حريتها ودعم فكرة مساواتها... قبل أن ينحدر بشكل سافر إلى أداء دور وظيفي محدّد رُسم له بعناية في الأروقة المظلمة.

وما رأته الأحزاب القومية الكردية تجاهلاً من قبل الأحزاب العربية لمجزرة الكيماوي في بلدة حلبجة (17 آذار/مارس 1988) فضلاً عن إظهارها لمشاعر رضى عنها وتبرير لها. والتحولات السياسية التي حصلت بعد عملية عاصفة الصحراء (17 كانون الثاني/يناير 1991)، والانتفاضة الشعبية التي حصلت عقبها، والتي سحقتها بعض الأجهزة الخاصة في الجيش المهزوم والمطرود من الكويت. اعتقال عبد الله أوجلان (15 شباط/ فبراير 1999) وحظر نشاط أتباعه واعتقالهم، وحركة الاحتجاج في مدينة القامشلي (12 آذار/مارس 2004) وما رافقها من قتل في الشوارع وتنكيل بالمتظاهرين الأكراد واعتقالهم... كان كل ذلك يدفع الحركة السياسية الكردية نحو نمط من العزلة والانكفائية النسبية، وتبني برامج تتمحور حول أهداف قومية خاصة، عززتها الانتهازية المتأصلة والاتجاهات السياسية المهيمنة التي تميل للمساومات السياسية. وقد ساهمت كل تلك العناصر في ابتعاد أغلبية الشعب الكردي عن حركة الاحتجاجات المندلعة في العام 2011، وتعزز الابتعاد بالمفاوضات مع حزب العمال الكردستاني في الخارج والاتفاق مع قيادته على حزمة من الإجراءات، كتجنيس الأكراد المحرومين من الجنسية السورية، واتفاقات غير واضحة على مناطق حكم ذاتي، والسماح بتكوين قوات عسكرية خاصة بالمناطق ذات الأغلبية الكردية لإدارة الشؤون الأمنية والعسكرية...الخ. بالمقابل لعبت المعارضة الإسلامية وحلفاؤها المرتبطون بالمخابرات التركية والخاضعون لإرادتها ومصالحها، دوراً في تعميق هذا الشرخ، بتجاهلهم أن الموقف من الشعب الكردي وقضيته التحررية من صلب المشروع الديموقراطي، الذي لا يكفون عن مضغه كعلكة، من دون أن يقدموا موقفاً مبدئياً أو أي حلول تنفيذية لتعييناته الواقعية.

– من أين تأتون بهذه الأسماء أيها الأكراد؟ سأل المقاتل بلغة عربية ناصعة، وهو يقلّب البطاقات الشخصية المصفوفة في كفه، ويقرأ آزاد – ولات – شيار – خبات... ويستوقفه اسم خبات... ماذا يعني هذا الاسم؟ مناضل، أجاب حامله الجالس في المقعد الخلفي، لاطماً رأسه وهو يهمّ بالوقوف في سقف «الميكرو» الواطئ.

– ستبقى عندنا.

– ولكن أهلي ينتظرونني، وسينشغلون على غيابي.

– نحن أيضاً عندنا أهل، لكننا تركناهم خلفنا، وجئنا إليكم.

ولم يكن بالإمكان سؤاله «لماذا قطعتم آلاف الأميال وجئتم إلينا، اللي فينا بكفينا»، وقد فات زمن القادمين من أيالات الأرض إلى بلاد الشام من «الذين يتكلمون عن الحقيقة ولا يعرفون الشريعة، وللناس فيهم كبير الاعتقاد»، وفق تعبير المؤرخ الدمشقي محمد الأمين المُحبّي.

كان يعلم أن من يعتقل هنا، سيعتقلونه هناك كذلك، ليسألوه عن اعتقاله، وعن المدى الذي تورط فيه بالعلاقة مع الكتائب المقاتلة، وسيكون موضوعاً لشكوكهم التي لا تنتهي، وهدفاً للتجنيد كعميل، ولن يحسم هذه المذلة إلا الانسحاب من هذه المتاهة المتواصلة التي لم يعد يرى له مكان فيها، إلى قريته النائية، والتخلي عن حقوق عمله لسنوات اقتربت من زمن إحالته على التقاعد.

عزيز تبسي
كاتب من سوريا

الأردن: ما الذي ينقص مبادرة «زمزم»؟

يعيش الأردن في هذه الأيام حالة انقسام في صفوف الإخوان المسلمين بعد إعلان القيادي السابق في الحركة د. رحيل الغرايبة تأسيس إطار سياسي جديد: «المبادرة الأردنية للبناء» («زمزم»). وتجلى الانقسام في أحدّ صوره بقرار الجماعة مؤخرا فصل قيادات المبادرة من حركة الإخوان، ومن بينهم مؤسسها ومنسقها.

السياسة تتدخل بتفاصيل الناس اليومية

لم يكن الأردنيون يرون قبل السبعينيات من القرن الماضي أن ثمة خصومة بين رضا الله وعيش الحياة كما هي، إذ كان الحس القومي والتحرري يحملهم بعيدا عن تفاصيل الحياة الصغيرة، فيتركونها تسير بسلاسة رأتها حركة الإخوان المسلمين في مرحلة ما أنها تخالف رغبة الخالق. شيئا فشيئا بدأ الناس – الذين لم يخاصموا الأديان – يشعرون بأنهم يمارسون المعصية. وبمرور الزمن تحلوا بالتقوى والخوف والتحفظ إرضاءً للخالق.

في الأردن، وبعد حظر الأحزاب السياسية وإعلان حالة الأحكام العرفية، لم يتأثر الإخوان المسلمون، وظل عملهم العام والدعوي مستمرا في شَعَبهم وفي المساجد والمؤسسات العامة. ذلك ما يورده الكاتب أبراهيم الغرايبة في «جماعة الاخوان المسلمين في الأردن (1946–1996)». لكن المد الاسلامي لم يبدأ إلا في أعقاب هزيمة حزيران، وبعد الطفرة النفطية والازدهار الاقتصادي، ليغلب على فكر الجماعة اتجاه التطرف وتكفير المجتمعات ووصفها بالجاهلية.

واليوم، بعد تطورات سياسية دولية تضاف لما سبق، أمسى الأردن يرتدي «الحجاب»، ويُسبله على أبنائه الذين يميل أكثريتهم للتدين التقليدي الذي بدأ بالترسخ قبل 50 عاماً، يمضون أيامهم ضجرين من واقع لم يفكروا في تفاصيله وأسباب غياب المتعة فيه. لكن صفحاتهم على فيسبوك وأحاديثهم تظهر شوقهم لبلدهم في أيام «الزمن الجميل» السابقة للمد المحافظ. كثيرون يغلبهم الحنين، لكنهم يخشون تجاوز الخط الوهمي الذي رسمته السياسة والأيام والقناعات، ويتحاشون البحث في طبيعة ذلك الحنين الذي يشدهم لبلد سمعوا أنها كانت مختلفة من فم الأهل الحريصين على رسم ذلك الخط الوهمي لهم، ومع ذلك لا يتوقفون عن توريثهم الحنين للزمن الجميل!

زوايا الخصومة السياسية المتعددة

يقرأ الأردنيون المرحلة السياسية الممتدة بين الأعوام 1957–1990 من زاويتين. الأولى، وهي أن الإخوان المسلمين كانوا يشعرون بالخوف من اجتياح الحركة الناصرية للأردن. هذه الزاوية يقف عندها المنسق العام لمبادرة زمزم ويشرحها: «الحركة الناصرية أعلنت الحرب على الإخوان لا العكس، كذلك النظام الأردني كان يشعر بالخطر من تكرار تجربة الضباط الأحرار في الأردن، والتقى طرفان كانا يشعران بالتهديد». وهو لا يخفي ضيقه من وصف الإخوان بأنهم كانوا مجرد «أداة في يد النظام» لتهميش القوى التقدمية واليسارية، واصفا القوميين بأنهم كانوا في ذلك الوقت يرغبون في جعل كل الناس أتباعا لهم، لذا آمن الإخوان بأنه حال وصول القوميين والبعثيين للحكم فإن قمعهم سيعادل أضعاف ما يتمتع به النظام الحالي من قمع. لكن الإقصاء الذي سعى الإسلاميون لإبعاد شبحه عنهم في الخمسينيات يمارسونه اليوم على أفراد مبادرة زمزم. ولا ينكر د. الغرايبة ذلك لكنه يُعيد السلوك إلى الحالة السياسية والاجتماعية والفكرية التي يصفها بـ«المريضة»، مبيّناً أن العقلية السياسية الحالية تعيش الخندقة وتعيش فكر الدفاع عن النفس عن طريق التصلب في المواقف والتطرف في المواجهة.

الزاوية الثانية يعبر عنها الكاتب والمحلل السياسي جهاد الرنتيسي: «انحياز الإخوان في ذلك الوقت لم يكن انحيازاً لقيم الديموقراطية، لم يكن الأردن ديموقراطيا، كانت البلاد تعيش أحكاما عرفية. جوهر القواسم المشتركة بين الاخوان مع النظام ذلك الوقت كان يستند بالدرجة الاولى الى رؤيتهما المحافظة وتقارب رؤيتيهما الاقتصادية القريبة إلى رؤى النظام الرأسمالي».

تشير المتغيرات على علاقة النظام والاخوان بين اليوم والأمس إلى أن الانقسامات التي تعرضت وتتعرض لها حركة الإخوان المسلمين، منذ العام 2000 وحتى اليوم، إنما هي نتيجة نضوج ثمرة الخلافات التي نشأت بينها وبين النظام. وعلى الرغم من أن الحركة الإسلامية اتخذت لها موضعا مع المعارضة منذ توقيع الأردن معاهدة وادي عربة مع العدو الصهيوني مطلع التسعينيات، لكن شعرة معاوية لم تنقطع بين الطرفين على مدى سنوات، وها هي تهتز منذرة بالانقطاع بعد ردة فعل حركة الاخوان المسلمين في الأردن على بدء المد الإخواني في المنطقة، معتقدين أن ساعة وصولهم إلى السلطة قد اقتربت. ويبدو أن القاعدة الفقهية «من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه» قد وافقت حالتهم. ولا يستطيع سياسيون ومراقبون رؤية حضور رموز سياسية موالية للنظام لحفل إشهار مبادرة زمزم إلا في سياق الدفع نحو تعزيز الانقسام الحاصل في الحركة.

«زمزم» لاعب جديد أم تابع موال؟

المنسق العام لزمزم لا يريدها تابعة لأحد. يريدها إطارا سياسيا يقدم حالة تنبذ التخندق وتتحرر من القسمة بين الموالاة والمعارضة. وهي في عينه لا تبحث عن سلطة إنما عن «إحياء الأمة من جديد». ويبرر حضور رموز سياسية محسوبة على النظام في حفل إشهارها بأن القائمين على الحفل دعوا الجميع، كما تمت دعوة المؤثرين في القرار السياسي، إضافة للمعارضة التي كان وجودها أقل. لكن الرنتيسي يراها كمن سبقها، «أي حزب الوسط الذي انفصل مؤسسوه عن الحركة الإسلامية قبل 13 عاما»، مفتقرة إلى عنصر معارضة الحكومة، وهو الأمر الذي ما زال يميز جماعة الاخوان المسلمين وييسر تفاعل الشارع معها. من دون إغفال أن قيادة الجماعة التي توصف بالصقورية، تواجه مأزقا كونها ترغب في التخلص من الإرباك الذي يسببه رموز زمزم الأكثر اعتدالا في الاطر القيادية والقاعدية، وفي الوقت ذاته الذي تخشى تبعات طريقة التخلص منهم. وهذا الارتباك تجلى في تعاطي قيادة الجماعة مع مبادرة زمزم منذ إعلانها وحتى ما بعد اتخاذ محكمتهم قرارا بفصل القائمين عليها.

يريد د. الغرايبة لمبادرته أن تكون نموذجا في تقديم العقل النقدي والشك في كل شيء بغية إخراج الشباب من دائرة التبعية الفكرية. إذ كيف سيخرجون من دائرة التبعية بدون قسط وافر من الحرية الاجتماعية والفكرية؟ وكيف سيتحقق ذلك في بلد له طابع محافظ؟ لا يقدم الرجل فكرا إسلاميا يناقض فكر جماعة الإخوان وحسب، بل إن ما يقدمه – وهو أستاذ جامعي في الفقه وله رسالة تحمل عنوان «نظرية الإسلام في الحقوق والحريات العامة» — قد لا يتمكن شباب اليوم الناشئ على قيم دينية تقليدية من استيعابه. فهو يرى أن الإطار الذي يمكنه إعادة بناء الأمة يقوم على «الحرية». ولنا تخيل حجم القضايا التي لا يقبل مجتمعنا المحافظ نقاشها وهي تتحلل في كف الحرية وتذوب وكأنها لم تكن. لا يتطرق مجتمعنا لقضايا كثيرة ليزنها بميزان الحرية، إنه يختصرها جميعا في البند الأخطر، «الردة عن الإسلام». يتناول د. الغرايبة الفكرة من خلال الشابة المسيحية التي لقيت حتفها قبل أيام في الأردن على يد والدها لأنها أشهرت إسلامها. يتوقف للحظة ويوضح: «أنا مع أن يتاح للجميع على حد سواء وبلا استثناء حرية الدين واعتناق الفكر»، ويشرح أكثر بأن حد الردة كان عقوبة سياسية في وقت من الأوقات، ولا يصح أن يكون القاعدة الأشمل ولا أن يُستشهد به كدليل على قتل المسلم إن غيّر فكره، بل إن النص الشرعي الذي يحفظ للناس حرية معتقدهم ثابت وواضح: «لا إكراه في الدين».

فهل تمد السياسة يدها وتعيد طرفا مما وعدنا به الزمن الجميل؟ ربما. لكن ثمة مخاوف من أن يكون المتغيّر سياسياً بالدرجة الأولى. لذلك يستبعد الرنتيسي أن ينعكس هذا الفكر تلقائياً على طريقة فهم المواطن الأردني للدين وتعاطيه معه، من دون أن ينكر تميّز رموز زمزم برؤية معتدلة تتفوق على رؤية القيادة الصقورية في جماعة الإخوان. إلا أن الأردن اعتاد أن تتم عملية استقطاب الشارع على أرضية سياسية بالدرجة الأولى تقوم على الموقف المعارض للحكومة.

«الأرضية السياسية القائمة على الموقف المعارض» مفتاح الشارع السحري لتغيير قناعاته الاجتماعية، يعيدنا لفتح أوراق حزب الوسط الاسلامي الذي أعلن رؤية معتدلة للإسلام بداية العقد الماضي، وصفها المفكر المصري الراحل د. عبد الوهاب المسيري في مؤتمر عقده الحزب في عمّان عام 2006 بأنها رؤية لإسلام «سياحي لا يخرمش أمريكا». والمسيري الذي لا يجافي فكره منطق الاعتدال وتحكيم العقل، لم يكن صقورياً متزمتاً، بل رأى أن نيات التجديد الديني يجب ألا ترتبط إلا بمشاريع تعارض الفكر الاستعماري، وإلا سيجافيها الناس، وإن اتبعوها مدة فسيكشف الزمن تلاعبها بأحلام الشارع وطموحاته.

رانية الجعبري
باحثة من الأردن

المملكة في زمن الكورونا

الكورونا أو «متلازمة الشرق الأوسط التنفسية»، الفيروس التاجي الذي بدأ يدبّ الذعر في أرجاء السعودية، ويجعل كل كحة أو زكام مرضا عضالاً يستوجب الحجر الصحي. هذا الفيروس ليس وليد الأيام أو الأسابيع الماضية، بل يرجع تاريخ ظهوره لعامين ماضيين، لم تكن فيهما المملكة مدركة لحجم الوباء الذي يدق بابها. اكتشفه طبيب مصري يدعى محمد علي زكريا، تم بعدها اتخاذ خطوات حكومية سريعة... أنهت عمله في مستشفيات السعودية بعد اتهامه بتجاوز وزارة الصحة السعودية وعدم إطلاعها على حقيقة الفيروس.

عاد الطبيب إلى مصر ليشارك اليوم في برنامج توعوي في بلاده يمنع انتقال الكورونا إلى مصر. وبقي المرض التنفسي الحاد في السعودية يقطف كل أسبوع مجموعة من الأرواح من دون أن تكون هنالك بدايةً أي خطوات جادة حياله. تحذيرات متفاوتة، وتضارب في إرجاع الفيروس القاتل إلى مصدر معين. بدايةً كانت تحذيرات من الخفافيش، وبعدها من أكل التمر دون تغسيل كون المرض قد يكون محشوراً بين سعف النخيل، وأخيرًا جاء دور الإبل. فقد أكدت دراسةٌ نمساوية صدرت حديثًا أن عدوى الكورونا لها علاقة بالجمال، نتيجة كانت قد أعلنتها سابقاً دراسة محلية أجرتها شعبة الأمراض المعدية في كلية الطب في جامعة الملك عبد العزيز بالسعودية، ربطت بين انتقال الكورونا الى الانسان وتعامله مع الإبل، مشيرةً إلى أنّه «بعد عزل فيروس كورونا من مصاب توفي في مستشفى سعودي ومن جمل كان يملكه، وجد الباحثون تطابقا كاملا بين الفيروسين»، حيث تحضن أجساد الجمال الفيروس الخطير، وأنّ أي تلامس معها أو أكل لحومها أو شرب لبنها قد يؤدي إلى الإصابة بالكورونا. ومن هذا المنطلق، أوقفت الإمارات استيراد الإبل خوفا من انتقال المرض إلى أراضيها.

لا يزال الأمر محصوراً في مناطق من السعودية، في الرياض وجدة والشرقية، وتزداد أعداد المصابين، إذ تجاوزوا الأربعمئة، توفي ثلثهم بعد صراعٍ مع المرض أدى إلى حدوث فشل كلوي ومضاعفات خطيرة في جهاز التنفس. البحرين القريبة من السعودية لم تعلن عن أي إصابة، وهي اتخذت إجراءات وقائية للحؤول دون انتقال المرض إليها بينما تدخل أراضيها جموع من السعوديين في نهاية كل أسبوع. مصر سجلت أول وفاة في الكورونا لشاب قادم من أرجاء المملكة، الأردن، قطر، الإمارات، لبنان... لكن وحدها السعودية فاق عدد المصابين فيها المئة.

الخوف من تحول العدوى إلى وباء دفع الحكومة السعودية الى التشديد على الفيروس واتخاذ الإجراءات الملائمة، أولها كان عزل وزير الصحة الذي لم يستطع الحد من انتشار المرض وتعيين آخر رفع من حالة التأهب. إلزام المحال التجارية وتجهيز أماكن التجمعات بأدوات التعقيم وفرض حالات الحظر على المشتبه بإصابتهم، ما جعل رأس الجبل الجليدي الذي يشكله الكورونا يظهر أكثر فأكثر على السطح لنكتشف مرضاً بدأ يفتك بالساكنين في أرض الحرمين من دون أن يتوافر أي علاج لحامليه.

يحكى أنّ السعوديين طالبوا الجيش المصري بإيجاد علاج للكورونا شبيه بإصبع الكفتة الذي يعالج به الإيدز في مصر. ويحكى أن السعوديين يقلقهم الكورونا بقدر ما تقلقهم الأسرار التي تخفيها وزارتهم عنهم: الأرقام الحقيقية، والخطر المحدق الذي ينتظرهم. ويحكى أن السعوديين يعرفون أن الحسد وحده، الذي يصيبهم من أبناء بلاد الجوار، هو ما سمح للكورونا بالإنتشار في بلادهم.

البلاد التي تشهد أكبر التجمعات البشرية، وتشهد اختلاط الناس من كل الأجناس باتت خائفة اليوم. متوجسة من المرض الذي لم يتوقف بعد. موسم العمرة مزدهر، وغدا موسم الحج... والكورونا يزحف إلى الإمام.

مريم ترحيني
كاتبة لبنانية مقيمة في السعودية

العربي السفير

قضية

(...) فلنا في أرضنا ما نعمل / ولنا الماضي هنا /
ولنا صوت الحياة الأول / ولنا الحاضر، والحاضر، والمستقبل
ولنا الدنيا هنا.. والآخرة / فاخرجوا من أرضنا / من برنا.. من بحرنا / من قمحنا.. من ملحنا.. من جرحنا
من كل شيء ، واخرجوا من ذكريات الذاكرة.

سيناء... شبه جزيرة الغموض

بقدر ما تبدو الأخبار الواردة من شبه جزيرة سيناء بين الحين والآخر مهمة أو خطيرة، فهي تبدو كذلك غير مفهومة. يستوي الغموض الذي يكتنف سيناء لدى العرب والمصريين بل يقترب من الالتباس السائد لدى سكان مدن قناة السويس على الضفة الغربية منها، بورسعيد والإسماعيلية والسويس، وهي أقرب الأقربين إلى «أرض الفيروز». فهل هي «وادي سوات» المصري أو «تورا بورا» العربية، معقل الإرهاب الذي تم تصديره إلى وادي النيل بعد عزل محمد مرسي؟ وهل هي مشروع وطن بديل لفلسطينيي قطاع غزة أو النقب المحتل؟ وما مدى ارتباط أعمال العنف فيها أو الزاحفة منها بجماعة الإخوان المسلمين؟ وهل تنقسم قبائل المنطقة الحدودية الشمالية إلى مهربين وتجار بشر وأعضاء جماعات جهادية؟ وما هي حقيقة علاقتها بالفصائل والقبائل الفلسطينية المختلفة؟ وإلى أي مدى يعكس التباين السياسي / السياحي بين شمالها وجنوبها حقيقة وجود أكثر من وجه لسيناء؟

يحاول هذا النص التعريفي والذي ستليه أجزاء أخرى حول سيناء، تقديم وصف عام لشبه الجزيرة التي شهدت الصراعات السياسية الإقليمية منذ حرب الفراعنة والهكسوس وحتى الصراع العربي الصهيوني منذ بداياته التنفيذية الأولى عام 1902. فالحقيقة أن سيناء لم تكن توسعاً للاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين بقدر ما كانت فلسطين هي الأرض البديلة التي قررت المنظمة الصهيونية العالمية أن توجه إليها مخططاتها بعدما رفض طلب تيودور هرتزل بالحصول على حق الامتياز الحصري لمدة 99 سنة لتعمير سيناء وإقامة مستوطنات يهودية فيها. رفض كل من اللورد كرومر، المندوب السامي البريطاني في مصر، ووزير الخارجية المصري حينها، بطرس غالي (عم الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة وأحد قضاة مذبحة دنشواي التي تم اغتياله بسببها). إلا أنها ظلت في المخيلة الاستراتيجية والأمنية الإسرائيلية، فلم يبلغ الحلم الصهيوني مداه إلا بوصول القوات الإسرائيلية إلى الضفة الشرقية من قناة السويس ثم ببناء خط بارليف المنيع.

المعلومات

يسود في الكتابات التعريفية بسيناء الاهتمام بالبيانات الرقمية والإحصائية، بدءاً من تصحيح الخطأ الشائع حول نسبة مساحتها إلى المساحة الإجمالية لجمهورية مصر العربية، والتأكيد أنها تقترب من 61 ألف كيلومتر مربع ولا تمثل سوى 6 في المئة من مساحة مصر البالغة مليون كيلومتر مربع تقريباً (يشيع خطأ أنها سدس المساحة أو 16.6 في المئة. وبعيداً عن الحقائق الجغرافية أو النظريات التاريخية حول سيناء، فإن الأوزان النوعية المتفاوتة لنوع المعلومات يحتم على المقال انتقاء أكثرها دلالة لفهم ما تعنيه حالياً شبه الجزيرة الحاضنة لمقدسات الأديان الثلاثة، بدءاً من جبل موسى وعيونه وأسماء المواقع الدينية التي وقعت فيها أحداث أهم فصل من حياة موسى وهارون، التي نسجت حوله الأساطير الأيديولوجية الصهيونية، مروراً بدير سانت كاترين على أعلى قمة جبلية في مصر، وأخيراً طريق الحج البري الذي انتهجه حجاج شمال أفريقيا إلى مكة لأكثر من 13 قرناً هجرياً، فضلاً عن دخول ساحلها الشمالي الشرقي ضمن ما يعرف لدى المسلمين بـ«أكناف بيت المقدس». فما هي سيناء؟

وصف جغرافي وديموغرافي

حسم حفر قناة السويس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الخلاف الجغرافي / الجيولوجي حول الحدود الغربية لشبه جزيرة سيناء. جغرافياً، يحدها شمالاً البحر المتوسط وبحيرة البردويل، وغرباً قناة السويس من بورفؤاد التابعة لمدينة بورسعيد حتى بورتوفيق التابعة لمدينة السويس. أما حدود الجنوب الغربي فهو خليج السويس الذي يلتقي مع خليج العقبة في أقصى نقطة جنوبية في سيناء، رأس محمد، ثم يمتد خليج العقبة شمالاً ليكون الحد الجنوبي الشرقي لسيناء. أما الحدود الشرقية

عزة الشريف – فلسطين

فهي محل جدل تاريخي وسياسي. شمالاً، اتفق على الموضع القديم للعلامة الحدودية الفاصلة بين سيناء وأرض الشام، حيث أقام الرومان قديماً عمودين في مكان قريب من معبر رفح البري حالياً، وقام العثمانيون بتجديدهما إلى أن تم تدميرهما في المعارك التي دارت بين جيش نابليون بونابرت وأحمد باشا الجزار والي عكا. أما جنوباً فالجدل قديم حول تبعية مدينة «أيلة» القديمة الواقعة على رأس خليج العقبة بين مدينتي «العقبة» الأردنية و«طابا» المصرية. فقبل أن توجد دولة باسم «الأردن»، كان اليقين أن «أيلة» القديمة، أو «المرشش» (أم الرشراش)، ليست من أرض الحجاز، وحين دارت في مطلع القرن العشرين معركة حول طابا بين المصريين والإنجليز من ناحية، وبين الأتراك العثمانيين من ناحية أخرى، لم تتناول وثائق التحكيم وضع «المرشش»، فاستثمرت العصابات الصهيونية هذه الفجوة وصار للدولة الوليدة في 1948 منفذ بحري جنوبي استراتيجي أسمته مدينة «إيلات»، وتحاول بشتى الطرق تغيير اسم الخليج ليحمل الاسم العبراني لمدينة العرب الضائعة.

إدارياً، لا تسمح الدولة المصرية لسيناء أن ترى ضفة قناة السويس، فتم تخطيط شبه الجزيرة بحيث تكون المناطق المتاخمة للضفة الشرقية لقناة السويس تابعة للمحافظات الواقعة على غربها، وهي من الشمال إلى الجنوب: بورسعيد ثم الإسماعيلية ثم السويس. بسبب المساحة الشاسعة ووعورة التضاريس، كان لزاماً بعد تحرير سيناء أن يتم الفصل الإداري بين جنوبها وشمالها. ورغم أن وسطها ذا خصوصية جغرافية وقبلية، وأهمية استراتيجية خاصة، إلا أن الكثافة السكانية المنخفضة جدا فيه كانت سبباً في إلحاقه إدارياً بشمال سيناء. فصارت مدينة «نخل»، ملتقى طرق الجنوب والشمال وطريق الحج القديم، وكذلك مدينة «الحَسَنة» الواقعة على مسافة 60 كيلومتراً تقريباً إلى الشمال من «نخل» تابعتين لمحافظة شمال سيناء.

بالإضافة إلى مدينتي الوسط وقراهما المحيطة، تضم شمال سيناء أربع مدن على الطريق الساحلي الدولي. يقع الشطر المصري من مدينة/مدينتي «رفح» على الحدود المصرية الفلسطينية، وإلى الغرب منها مدينة «الشيخ زويد» على مسافة 10 كيلومتر تقريباً، ثم «العريش» العاصمة إلى الغرب من الشيخ زويد بمسافة 30 كيلومتراً، ثم أخيراً مدينة «بئر العبد» على ضفاف بحيرة البروديل في أقصى الشمال الغربي من المحافظة، على مسافة 75 كيلومتراً تقريباً من العاصمة العريش. تدور الأحداث الأمنية الحالية والسابقة في محيط مدينتي الشيخ زويد ورفح وقراهما الجنوبية، حيث تتشابك المصالح والأنشطة التهريبية والسلاح الأيديولوجي بسلاح المرتزقة، وحيث تنتهي 14 كيلومتراً من الحدود مع قطاع غزة وتبدأ 190 كيلومتراً بين معبري العوجة وطابا، هي حدود مصر مع فلسطين المحتلة.

... ووصف اجتماعي

لا تُعامل «طابا» – المحررة بالتحكيم الدولي في 1988 – إدارياً كمدينة مستقلة، بل كقرية تابعة لمدينة ومركز «نويبع»، حيث الميناء الذي تم تحويل طريق الحج البري إليه لتنقل العبّارات الحجاج والمعتمرين، والعمالة الرخيصة، إلى ميناء «العقبة» ليستأنف كلٌ طريقه. وفي طريق الموت الحلزوني بين الجبال، تستغرق رحلة الـ 100 كيلومتر إلى مدينة دهب أكثر من ساعة ونصف حرصاً على السلامة، ثم 100 كيلومتر أخرى أكثر أماناً إلى مدينة شرم الشيخ السياحية. بين «دهب» و«نويبع» على خليج العقبة طريق يتجه إلى الغرب صاعداً إلى مدينة سانت كاترين الحاضنة للدير الشهير الذي تحميه قبيلة «الجبالية» منذ ما يقرب من ألف سنة. ثم يستكمل الطريق غرباً لينزل إلى «وادي فيران»، حيث تحمي قبيلة «القرارشة / الجرارشة» دير الراهبات اليونانيات الأرثوذكس. وينتهي الوادي إلى الطريق الواصل بين مدينة «الطور»، عاصمة جنوب سيناء التي تبعد عن «شرم الشيخ» 100 كيلومتر تقريباً يقع معظمها على الساحل الشرقي لخليج السويس. أما مدينتا «أبو رديس» و«أبو زنيمة» البتروليتان فهما تتوسطان المسافة بين «الطور» و«رأس سدر» (صدر)، آخر مدن جنوب سيناء على خليج السويس.

وهكذا، تتجسد سيناء في 12 شخصية متنوعة لمدنها ومراكزها، باعتبار التشابه الكبير بين «نخل» و«الحسنة» في الوسط، وبين «أبو رديس» و«أبوزنيمة» في الجنوب. فالجنوب، الهادىء نسبياً والأقل سكاناً، تتنوع أنشطته وأصول سكانه بين البدو المزارعين في الوديان النائية والوعرة وبعض المساحات المستصلحة حديثاً في محيط «طور سيناء» و«رأس سدر» و«نويبع»، وبين البدو العاملين على هامش الأنشطة السياحية المحتكرة من قبل كبار رجال الأعمال ودوائرهم من الوافدين من وادي النيل حيث يتم دعمهم أمنياً وبيروقراطياً ضد المحليين من البدو – السكان الأصليين إذا صح التعبير – وأخيراً الموظفين والمهندسين والفنيين الوافدين من وادي النيل للعمل في الجهاز البيروقراطي وشركات البترول الضخمة (اكتفت «إسرائيل» ذاتياً في احتياجاتها من الوقود بفضل آبار جنوب سيناء في سنوات قليلة من الاحتلال ثم بلغت مرحلة التصدير، وقد احتل التفاوض على حقول النفط موقعا بارزاً في المفاوضات المصرية الإسرائيلية حول اتفاقيات وقف إطلاق النار ثم الانسحاب التدريجي من سيناء).

أما الشمال الساخن، الأكثر سكاناً (لا يتجاوز سكان سيناء كلها المليون نسمة وهي من أقل المناطق المأهولة في مصر من حيث الكثافة السكانية، ولا يوجد إحصاء موثوق يمكن الاعتماد عليه في تحديد رقم تقديري أقرب للواقع)، فيتنوع سكانه بين القبائل البدوية في الوسط وبئر العبد والشيخ زويد ومحيط رفح، وبين العائلات الحضرية والإقلاعية في العريش ومدينة رفح. و«الإقلاعية» هم بقايا المماليك الناجين من مذبحة القلعة في عهد محمد علي، أو نسبوا إلى بعض القلاع في نواحي خان يونس وغزة حين تحصنوا بها أثناء تحالفهم مع قبيلة الترابين في حربهم الضروس ضد السواركة في القرن التاسع عشر. أما سكان شمال سيناء من غير قبائل سيناء وعائلاتها، فهم الوافدون من الشرق – اللاجئون الفلسطينيون منذ النكبة وما بعدها – والمصريون الوافدون من وادي النيل غرب قناة السويس.

تتنوع الأنشطة الاقتصادية بين التجارة والزراعة والمحاجر وتهريب السلع المشروعة والممنوعة والسلاح والاتجار بالبشر، بالإضافة إلى الوظائف الإدارية والخدمية الحكومية والخاصة، والتي يسيطر على الحكومي منها العسكريون المتقاعدون والوافدون من وادي النيل. ويتضح لمن يجول في ربوعها الواسعة ويلتقي بسكانها على تنوعهم قدر عال من التنوع والتعقيد، لا يمكن اختزاله في تلك الصورة التي ترسمها وسائل الإعلام الخاضعة لهندسة الرواية المنقولة كما يريدها العسكريون وأجهزتهم الاستخباراتية.

إسماعيل الإسكندراني
باحث في علم الاجتماع السياسي - من مصر

أسرى الحرب العراقية ـ الإيرانية: حطب يشتعل منذ عقود

لم اعتقد أبداً أن الجميع كانوا في ورشة الحياة يُصلّحون الانتظار. ورشة كبيرة، يمسك كلّ طرف منهم بأداة لترميمه من العطب، حتّى لا يتعطّل. منذ أيام رنَّ الهاتف وهو يأتي بخبر وصول دفعة من الأسرى العراقيين من إيران. كانت الأصوات تتداخل، «شوف معارفك واعرف اذا ما كان بينهم».

لم ينسوه إذاً، بعد مرور 26 عاماً على فقدانه. استحضروا مجدداً قصصه وحكاياته، إنه دون كيشوت العائلة الذي أمسك سيفاً خشبيّاً وحارب الأيام، لكنها خانته. حسين ما زال عالقاً فيهم رغم كل الحروب والفقدانات التي عاشوها طوال العقدين الماضيين.

كنت أعلم أن الخبر كاذب، لكنهم يوهمون أنفسهم بعودته. أتابع صفحة على «فايسبوك» مختصة بأخبار أسرى تلك الحرب. أخبار يتداولها أسرى سابقون، تشير إلى وفاة رفاق لهم جرى دفنهم في إيران، منهم من يعرفون اسماءهم ومنهم من لا يعرفونها. وقد يكون عمي حسين واحداً ممن تُروى قصصهم تلك.

منذ أيام، لم يكن ما قادني إلى تلك الصفحة هو الفضول المعتاد، ولا الصدفة، وإنما خبر وصول 400 أسير إلى محافظة السليمانية شمال العراق. لم يصمت الهاتف جراء اتصال وإلحاح عمّاتي وأبنائهن من أجل إيجاد اسم «حسين علي فاضل»، شقيقهن الأصغر الذي فُقد في الحرب، بين أولئك العائدين.

وليست عائلتي وحدها من تتذكّر أسراها ومفقوديها وموتاها. أكثر المعارك قسوة وضراوة يعرفها حتّى أولئك الذين ولدوا في نهاية التسعينيات. «نهر جاسم» الحدودي في محافظة البصرة ليس قبلة للعشاق أو صيادي السمك، بل هو نهر من دم وفواجع، إذ ارتبط بأشرس المعارك. تتردّد أسماء كثيرة لجنود مفقودين في تلك المعارك. كان عمّي حسين أحد أولئك، كلّمتني جدّتي عنه حتّى ظننت أنه شخصيّة روائية مضخّمة. عاشق ووسيم وشاعر وعازف وشجاع، لكن الخدمة الإلزامية دفعته الى الجبهة، كما أقرانه، لتحيله إلى عداد المفقودين. جيء بجثّة حسين بعد فقدانه، إلا أن والدي وجدّتي رفضا تسلّمها: لم تكن له! كان شخص إيراني يحاول أن يُدفن في النجف، إذ أشيع في تلك الفترة أن الجنود الإيرانيين يستولون على وثائق الأسرى من الجنود العراقيين، في محاولة منهم لضمان دفنهم، في حال موتهم، في مقبرة وادي السلام، أكبر مقبرة في العالم والتي تقع إلى جوار مرقد الإمام علي بن ابي طالب.

خلّفت تلك الحرب آثاراً اجتماعية كبيرة، وظفها الأدب والمسرح العراقي في مئات من القصص والروايات والقصائد والمسرحيات. كانت جدّتي، رغم حزنها على حسين، سعيدة بعدم تزويجه بسنٍّ مبكّرة. إحدى تلك الحكايات كانت ذات جذر عشائري، إذ انتشرت ظاهرة تزويج أرملة الشهيد إلى أخيه للحفاظ على أولاده ومكتسباتهم المادية كالدار والسيارة الممنوحتين من الدولة ثمناً لدمه. كان خبر استشهاد الأخ كافياً ليحلّ أخوه محلّه في غرفة نومه، وليتقمّص شخصيته. مشهد يبدو جاهلياً، لكنه وارد بشدّة آنذاك. بعد سنوات سيتضح أن بعض هؤلاء الشهداء كانوا أسرى، وحين يعودون ويرون ما حلّ بزوجاتهم تختلف ردات فعل كل منهم. بعض الأسرى جُنّ، وبعضهم تقاتل مع أخوته بالبنادق لينجو من حرب أخرى أو يموت فيها، وبعضهم الآخر هرب، وآخرون تناسَوا وعاشوا هموماً جديدة. لكن حسين لم يعُد.

حرب الأسرى

هي الحرب، أينما حلّت حلّ معها الدمار، فكيف بحرب استمرّت ثماني سنوات متواصلة ضاربة عُرض الحائط بأكثر من 30 مبادرة لوقفها. السلاح يصل من كل الدول، والبشر حطبها الذي يشتعل من دون أن يلم أحد رماده، فليس للحرب العراقية الإيرانية إحصاءات موثوقة. حكومة الرئيس العراقي الأسبق صدام حسين التي خاضت الحرب بالإنابة عن دول الخليج حينذاك، لم تكن تهتم إلا بالبطولات والخطابات الرنانة، ولم يكن القتلى إلا وقوداً لإدامة الحرب، والأسرى مفخرة للنظام لأنّهم «ضحّوا بأنفسهم للدفاع عن شرف الوطن». أما إيران، فكانت هي الأخرى مزهوّة بثورتها، وبنظامها الإسلامي الجديد، فلم تكن تعلن عن خسائرها، مكتفية بإعلان انتصاراتها المتكرّرة.

من الجانب العراقي، ووفق إحصاءات متضاربة، فُقد قرابة مليون قتيل، فيما وقع نحو 75 إلى 85 ألفاً أسرى بيد القوات الإيرانية (بحسب المركز العراقي للدراسات الإستراتيجية). أعيد من هؤلاء حوالي 36 ألف أسير في العام 1990، لكن دخول صدام حسين في حرب جديدة أوقف ملف تبادل الأسرى...

وبعد احتلال بغداد في نيسان/ابريل العام 2003، بدأت إيران مجدداً بإرسال الأسرى الذين تبقّوا لديها. وحسب الإحصاءات الرسميّة عاد حتّى العام 2012 نحو 8467 أسيراً، أرسلوا على دفعات. لم يعرف أحد ما جدوى الحفاظ على هؤلاء في السجون الإيرانية حتّى بعد أن حلّ في بلاد الرافدين نظام موالٍ لطهران. وفي العام ذاته، أكدت اللجنة الدولية للصليب الأحمر أنه لم يعد هناك أسرى عراقيون في إيران، وأغلقت الملف. لكن في هذا الوقت، كان رئيس بعثة المنظمة نفسها يؤكد وجود 220 أسيراً في إيران، ما جعل الأمر ملتبساً. وفي نهاية العام 2013، كشفت لجنة حقوق الإنسان البرلمانية عن وجود 400 أسير لم تسلّمهم إيران إلى العراق. زاد هذا التصريح الأمل لدى أهالي المفقودين في الحرب، الذين يبلغ عددهم نحو 52785، بحسب الجهاز المركزي للإحصاء.

التوّابون!

وإذا كانت الحرب قد ألقت بظلالها على المجتمع العراقي في الداخل، فإن الأسرى كانوا أيضاً يشكّلون نواة مجتمع في مكان أسرهم، فبعض هؤلاء كان قد تحوّل قيادياً في الأحزاب العراقية التي تشكلت في إيران لمعارضة نظام صدام حسين وعاد ليحلّ في مناصب رفيعة في حكومة ما بعد الاحتلال الأميركي. سمّي هؤلاء بـ«التوابين». بعضهم تسلّل إلى جنوب العراق قبيل سقوط النظام، ويقدّر عدد هؤلاء بنحو 1606 أشخاص. أما بعد سقوط النظام بشكل كامل، فعاد نحو 5922 شخصاً، وكان أغلب هؤلاء متزوجاً من نساء إيرانيات، وجاءوا معهن ومع أولادهم، ووجدوا الزوجات اللواتي تركوهن يانعات وقد غزاهنّ الشيب. إنها مفارقات الحرب مرّة أخرى. منهنّ مَن رضي البقاء على ضرّة إيرانية، ومنهنّ من اكتفين بالالتفات إلى أولادهن وأحفادهن.

بانتظار الأسرى

منذ أوّل اصال أجريته تأكّدت بأن خبر عودة الأسرى كاذب، فجميع المعطيات تشير إلى بطلانه، لكن الفرحة التي بلغت عمّاتي ووالدي كان لا بدّ أن تدوم قليلاً، وأن يضيعوا في بحر الأمل الذي جذّفوا فيه بقوّة، إلا أني حينما رأيتهم يذهبون بعيداً سحبتهم إلى جرف الحقيقة وأخبرتهم أن الأمر كذبة، لكنهم ظلّوا على أمل.

«إن كان الخبر صحيحاً أو محض كذبة، فإنه فتح لنا باباً لنأمل عودة أولادنا»، كان هذا ردّ سيّدة على صفحة «فايسبوك» بشأن الخبر الكاذب عن عودة الأسرى، وكذلك كان ردّ عمّتي: «لا يوجد دخان من دون نار». والحكومة مستمرّة بالوعود في البحث عن أسرى آخرين لدى إيران، والأهالي في الانتظار، فهل يعودون؟

عمر الجفّال
كاتب صحافي من العراق

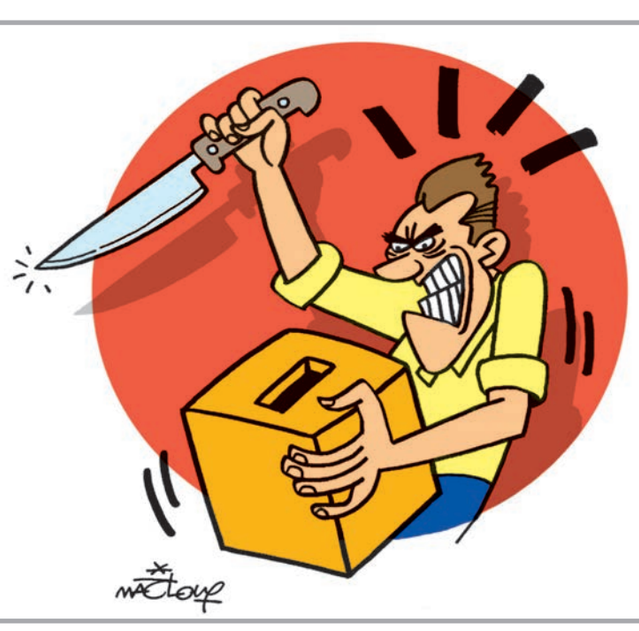

انتخابات ديموقراطية

وماذا لو خسر السيسي الانتخابات؟

ماذا لو فاز حمدين صباحي؟ هذا احتمال مطروح. هذه انتخابات ديمقراطية، طبيعية، يتوقع لأي طرف فيها أن يفوز، أليس كذلك؟

ولكن الاحتمال كابوسي مع هذا. البطل الشعبي المخلّص والمنقذ والهادي يخسر الانتخابات، ومعه كل هذه الجموع، وبعد ماذا، بعد أن تخلى عن وزارة الدفاع. صدمة عصبية تجتاح البلاد. تندفع الجماهير لتعبر صراحة عن شكها في وجود الله، أكبر موجة إلحاد تغزو مصر، «إيلي إيلي لما شبقتني»، أي إلهي إلهي لماذا تركتني. الجماهير هائجة، تندفع لتكسر وتحطم وتندب، في طريقها تقابل جماهير أخرى تحتفل بفوز صباحي، تصاب الجماهير الأولى بهستيريا شديدة فتقتحم محلات الخمور لتشرب وتشرب ثم تقطع شراييها. أكبر موجة انتحار جماعي تغزو مصر، في ساعتين تكون القاهرة أنقاضا خربة.

ولكن هذه ليست نهاية القصة، للقصة نهاية سعيدة. ففي مكان آخر يحدث شيء آخر.

مهم لنا أن نعرف كيف استقبل الرئيس الجديد حمدين صباحي الخبر. الرئيس صباحي مرتبك. الرئيس صباحي خائف. علبة كهرباء مفتوحة، رصاصة شاردة، وجبة منتهية الصلاحية، قد تقضي عليه وعلى مستقبل أولاده. لا أحد تبلغ به الحماقة لأن يستهين بغضب الآلهة. تليفونه لا يتوقف عن الرنين لتهنئته برئاسة مصر، ولكن هو نفسه غير مرتاح. يدخل الحمام أكثر من مرة، ويخرج كل مرة ووجهه شارد. يصلي صلاة الاستخارة، ثم يخرج ليلاً في خطاب متلفز للأمة. لديه كلام مهم. يعلن أن الانتخابات تم تزويرها لصالحه ولصالح المستقبل المدني لمصر، ولكنه رجل نزيه لا يقبل التزوير، حتى لو فاز بسببه. ولذلك فهو يهدي نصره لصاحب الفضل الحقيقي والفائز الحقيقي، المشير عبد الفتاح السيسي، ويدعوه الآن لأن يتبوأ مقعده في قصر الرئاسة. تصل الدعوة للسيسي فيعلن قبولها خوفاً على مصير الوطن.

الجماهير التي كانت قد انتحرت تنتبه، تصحو ببطء، تغمر صيحات النصر كل شوارع مصر، وفي ثلاث ساعات يتم تعليق ملصقات ضخمة للسيسي، البطل المصري الأسمر الذي وافق على التضحية بنفسه مرتين لينقذ البلد.

(نص نائل الطوخي ورسم محمد مخلوف)

العربي السفير

متابعات

أيها المارون بين الكلمات العابرة / كدسوا أوهامكم في حفرة مهجورة ، وانصرفوا (...)
فلنا ما ليس يرضيكم هنا، فانصرفوا / ولنا ما ليس فيكم:
وطن ينزف شعبا / وطن يصلح للنسيان أو للذاكرة
أيها المارون بين الكلمات العابرة/ آن أن تنصرفوا

... إلى القرية المجاورة

لم يسوِّ الصهاينة بالأرض قرية عين كارم المحاذية للقدس بعد تهجير أهلها صيف 1948، خلافاً لما طال غالبية القرى الفلسطينية. أُبقيت البيوت كما هي، تفصل أزقة ضيقة بين بعضها، وأخرى تتحلق لتشكّل حوشاً حول باحة واسعة، يسكنها الآن من لم يعمّرها.

لم تعد عين كارم مزاراً دينياً فحسب بل مزاراً للخيال، نقصدها للانتقال مجازاً إلى القرى التي خُرِّبت، فلا يأتي أحد زائراً نواحي القدس إلا ونجرّه مسرعين ليتفرج على عين كارم. لكن «بقاء» عين كارم يستدعي سؤالاً عن واقع القرى الفلسطينية الأخرى التي بقيت وبقي أهلها فيها، فيما فُرضت عليهم المواطَنة الإسرائيلية. لماذا لا يشكل بقاء هذه القرى، ببيوتها وأهلها، مساحة للفلسطيني لاستذكار بلده؟ يأتي الجواب جلياً للناظر. لم تُهدم غالبية بيوت هذه القرى ولم يُهجّر أهلها، ولكن النكبة قطعت تطورها الطبيعي، فيما دأبت إسرائيل على هدم طابعها القروي ومسحه بتحويلها إلى أماكن هجينة عشوائية، معلقة في الهواء، لا ماضٍ يسندها ولا أفق لمستقبل تطاله عيناها.

قرية فلسطينية أم قرية عربية؟

«القرى» أو «القرى العربية»، هي التسمية التي تطلقها إسرائيل على القرى الفلسطينية الباقية والواقعة في أراضي فلسطين المحتلة العام 1948. «قرى» ترميزاً لـ«التخلف» لا إلى الطابع، و«عربية» للإشارة إلى كونها «الآخر» المغاير وسط دولة ومجتمع مؤسسين على مقولة «لم يكن ثمّة شيء اسمه الشعب الفلسطيني». أنتجت إسرائيل بناء على ذلك حيزاً متجانساً من القرى المعزولة عن سياقها التاريخي السياسي والاجتماعي والاقتصادي لاحتوائها وترسيخ دونيتها.

كان لا بدّ وفقاً لهذا المنطق من تهديم القرية الفلسطينية كمكان معيشي لمجتمع زراعي قوامه الأرض، فصادرت إسرائيل الغالبية العظمى من الأراضي الزراعية وفق قوانين طوارئ فرضتها بموجب حكم عسكري دام عشرين عاماً. انحسرت الأراضي لتبلغ حصة الفلسطينيين منها 3 في المئة فقط من مجمل الأرض المحتلة العام 1948. بقيت الحصة ثابتة لم تتغير، ولم تتوسّع المسطحات البلدية لأي قرية، رغم تضاعف عدد سكانها 16 مرة منذ النكبة، بما في ذلك النازحون الداخليون الذي شُرّدوا من قراهم المدمرة، ليبلغ تعداد الفلسطينيين بالمجمل اليوم في أراضي 1948 أكثر من مليون ونصف نسمة.

كما مَنع منطق التهديم بناء أي قرية فلسطينية جديدة منذ النكبة، عدا سبعة تجمّعات سكنية أقامتها إسرائيل على أراضي بعض القبائل البدوية في صحراء النقب لتركيز كل القبائل فيها والتخلص من «مشكلة ادعاءات ملكيتهم في أراضي النقب». وانتهجت إلى جانب ذلك سياسة الاعتراف بقرية دون أخرى، متلاعبة باحتساب قرية ما على أنها «شرعية» أو عدم الاعتراف بأخرى بتاتاً. اعترفت إسرائيل بـ135 قرية تحت نظام حكم مجالس محلية منتخبة مباشرة من الأهالي، فيما ترفض الاعتراف مثلاً بعشرات القرى البدوية في النقب، التي باتت تُعرف بـ«القرى غير المعترَف بها»، حتى على لسان أهلها. لا تقتصر إسقاطات عدم الاعتراف بالمكان على تدمير طابعه القروي أو البدوي، وإنما على قابلية المكان ذاته للعيش فيه، إذ يفتقد للكهرباء والماء والتصريف الصحي، ناهيك عن تدمير المحاصيل الزراعية، ما يعني سدّ الطريق بين الإنسان وأرضه وهو فيها لا يبارحها.

تستغلّ إسرائيل مؤسسات التخطيط والبناء التي تنظّم المساحات السكنية والزراعية والصناعية بناء على خرائط هيكلية ومخططات معمارية، للإمعان في تدمير القرى الفلسطينية. فهي أبقت الأخيرة على هامش أي تخطيط أو تنظيم منذ سبعينيات القرن الماضي. حمّلت هذه السياسة الفلسطيني مسؤولية تخريبه لقريته، إذ بات يبني من دون «ترخيص»، ما يُعتبر خرقاً لقوانين التنظيم يكلف غرامات باهظة وتهديد دائم بالهدم.

عادة ما تُسرد هذه المعطيات دون الكشف عن المشهد المتكدّس تحتها، وعن إسقاطات هذه السياسات على أرض الواقع. يبدو تشوّه الحيز القروي جلياً للعين إذا مرّ أحدهم بمحاذاة أي قرية فلسطينية، التي يمكن تمييزها عن البلدات الإسرائيلية التي أقيمت على أراضيها أو أراضي أخرى مدمرة، بحيث تطورت كل من هذه البلدات وفق الطابع الذي اختارته لنفسها. باتت القرى الفلسطينية مشهداً متناقضاً متكرراً من الأبنية المتراصة فوق بعضها البعض من جهة والفيلات الفخمة في جهة أخرى، تجانبها متاجر التسوق العملاقة والمقاهي ونوادي الرياضة، التي جاء بها مستثمرون فلسطينيون. مسح ذلك خصوصيات معالمها القروية التي ميّزت إحداها عن الأخرى، وأعاد إنتاج علاقتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، مثقلاً إياها بالفقر والبطالة وتفشي العنف والمخدرات والحمائلية، والطائفية مؤخراً... التي تُفتت المجتمع الفلسطيني من الداخل وتهدمه.

«أجت إسرائيل»

المخيلة عضواً مبتوراً في هذه القرى المعلقة «خارج المكان» والزمان، تعوض غيابه بأسئلة تعود بك إلى ذلك العام، متلمساً طريقاً لم يعد يسلكه الكثيرون. «يا عمتي شو صار بالـ48 في غرابة؟»، سألت مرة عمّة والدي السبعينية عن قريتي عرابة البطوف، إحدى القرى التي بقيت في شمال فلسطين. فاستهلت حديثها قائلة «أنا عارفة يا عمتي.. فات أبوي على الدار هاضاك النهار، وقال لنا أجت إسرائيل..».

تشرح صورة «مجيء إسرائيل» إلى القرى الفلسطينية عبثية الانتقال بين عالمين من دون أن يترك الناس قراهم، وتحدد ذلك العام على أنه اللحظة التي أُفقدت القرى الفلسطينية سياقها، بفقدانها جمعيتها ووحدتها كوطن وكمجتمع. وإذ نقول لحظة فهي ليست عنواناً لحدث وانتهى، إذ يشكل فقدان السياق سيرورة مستمرة تتمثل بتخلخل الرابط بين الواقع اليومي للقرى الفلسطينية المتبقية والنكبة و«مجيء إسرائيل». ففي الوقت الذي يملك فيه اللاجئ عنواناً يعود إليه، ولو مجازاً وأحلاماً، يضطر الفلسطيني «الباقي» للتعامل مع قريته كمعطى حياتي ومكان مشغول بالهموم اليومية التي يفرضها «مسموح وممنوع» المنظومة الاستعمارية. هكذا تُبنى المفارقات. مقابل ذاكرة القروي الفلسطيني في الشتات التي تتميز باستذكار المعالم الجغرافية المشكّلة للمكان، والدلالات المكونة لعالمه الفعلي، فيذكرها باسمها وموقعها والطريق إليها، لا يملك ابن القرية المتبقية أي ذاكرة أو مخيلة مكانية شبيهة تعزز رابطه بفلسطين الماضي والمستقبل.

في مكان ما هناك، في مخيلة الشتات الفلسطيني، ظلت القرى الفلسطينية المتبقية أمكنة «صامدة» ساكنة لا تتبدل، في حين تمرّ فعلياً بعملية تدمير يومية تستنزف كل معناها كقرية فلسطينية. من هنا بقيت هذه على هامش التأريخ الفلسطيني عن النكبة الذي تَركّز بطبيعة الحال على دمار القرى والمدن الفلسطينية الأخرى وتشتيت أهلها. أربك ذلك العلاقة التي تجمع الفلسطيني الباقي في قريته مع النكبة كحدث مؤسِّس في حياته، بحيث لم يعد يرى هو ذاته أصول أزماته اليومية مع المكان كجزء من دمار أحدثته النكبة. تُضاف إلى ذلك منهجية طمس التاريخ الفلسطيني في وعي الفلسطينيين عبر مناهج التعليم والترميزات الصهيونية المهيمنة وغيرها من سياسات إسرائيل لمحو الذاكرة، التي تُغيّب بطبيعة الحال الرواية الفلسطينية، وتعززها بخطاب أقلية دخيلة على أرض ليست لها.

القرية المجاورة

هناك قصة قصيرة جداً لفرانز كافكا اسمها «القرية المجاورة» هي كالتالي: «اعتاد جدي القول إنّ الحياة قصيرة حدّ الذهول، إنها تزحم رأسي الآن بذكرياتها حتى أنني بالكاد أتصور كيف يقرر شاب، مثلاً، ركوب فرسه حتى القرية المجاورة من دون خوف ــ بغض النظر عن الحوادث الأليمة ــ فحتى مدة الحياة العادية المليئة بالسعادة لا تكفي مثل هذه الرحلة».

لا تستغرق الطريق من القدس إلى عين كارم أكثر من ثلث ساعة بالمجمل. فيما تستغرق الطريق من القدس إلى الجليل حوالي ثلاث ساعات. إلا أن الإحساس بالوصول هو أقل ما تشعر به لحظة دخول أي من هذه القرى، إذ تبدو كأنها «قرية مجاورة» يستحيل الوصول إليها، وقد تبدد المعنى الذي كانت تحمله يوماً أو ذلك الذي كان لها أن تحمله. القرية المجاورة هي عنوان الاغتراب في بلد لا تصله، أنت «الباقي» فيه.

حنين نعامنة

محامية وكاتبة فلسطينية

حلم ..

علي نورالدين/فلسطين

arabi@assafir.com

- المغرب: الإسلاميون فقدوا المسجد ولم يكسبوا المقهى - محمد بنعزيز
- الشدّ على الوتر الحساس: الفقراء في خطابات مرشحي الرئاسة ـ باسم راشد
- يستقبل الموقع مساهماتكم واقتراحاتكم وتعليقاتكم على العنوان التالي:
تابعونا على «فايسبوك»: السفير العربي ـ Assafir Arabi
تابعونا على «تويتر»: السفير العربي - @Arabi Assafir

.. بألف كلمة

#فلسطين_بلادنا

مخيم الفارعة

مخيم دير البلح

الخليل

(الصور من صفحة «كزدورة وصورة» على فايسبوك)

مدونات

النكبة في تفاصيلنا

هل لديّ النيّة أن أكتب أي شيء عن النكبة؟ أو أن أحدث نفسي عنها؟ هل تعنيني تحضيرات المهرجانات والخطابات؟ أم هل تنقذني قوالب المقالات الجاهزة والعناوين الدرامية فاستخدمها لكتابة أي شيء، وهكذا أتخلص من عقدة دوري كمواطنة في إحياء الذكرى.

لا، لم تكن لديّ النيّة لكل ذلك. ولم تؤثر فيّ لا الخطابات المجترّة ولا مسيرات الشموع والمشاعل. جُل ما كان لينقذني من حيرتي هذه هو أمل بإنبات بذرة نقيّة لفكر جمعي متّسق يلمّ شملنا كفلسطينيين، أن نحتضن الشوارع دون أن يدعونا أحد لذلك.

أريد أن أكون من جيل آخر، الجيل الذي نسمع عنه من أجدادنا والذي نقرأ عنه في الحكايات والوثائقيات. لا أريد عطلة رسمية مفتعلة، أريد قيامة شعبية حاشدة تهوي بعناوين الصحف المبتذلة وتجعل العلوم الاجتماعية كلها عاجزة عن تحليل الحالة.

عندما تُذكر النكبة، قف قليلاً وتأملها، ستجدها في كل تفاصيلك. فلا تظن أنك إن غُيبت، أو قررت أن تغيب ستتجاوزها. لن تفعل... هذه مرحلة ركود فقط، وستزول، كُلي أمل.

من مدونة «تالا حلاوة» (تنشر بالتزامن)
http://talahalawa.blogspot.com/

الحب في ظل النكبة

المشهد الأول:

سألته يوماً: «كيف من زمان، لما كانت الناس تسافر، وفجأة يحبوا اتنين بعضهن في بلد غريبة خلال زيارة سياحية. وفجأة يرجع كل واحد منهن على بلده. كيف كانوا يضلهن على تواصل، يكملوا يحبوا بعض، وفي كتير من المرات يعملوا عيلة سوا.. قبل ما يكون في إنترنت وهواتف ذكية؟».

أجابني: «لأنه وقتها كانت الناس تسافر عند بعض من غير فيزا. ومكنش في حدود انحطت بينهم».

المشهد الثاني: قبل أن يترك بيروت بيوم واحد ليعود إلى القاهرة، أرسل لي رسالة قائلا: «أول مرة بكون برا مصر وبمشي لوحدي في الشارع. بس بكلمك وبتردي عليا. وبتخيلك وإنتي بتوصفيلي شوارع بيروت. بشوفك هنا. تشبهي الشوارع دي جداً. كأنك متربية فيها. وبسمع أسماء المناطق بصوتك. وأنا بحكيلك حاجة بحس إني مش محتاج أشرحلك جغرافياً مكانها. لا يمكن تكوني عمرك ما جيتي هنا».

المشهد الثالث: لا يمكنني أن أصل بيروت التي تبعد عني، عن عكّا، حوالي 116 كم. ولا أن أصل القاهرة إلا مع تأشيرة دخول.

المشهد الرابع: حين كتبت يوماً ما ضد فنانة «فلسطينية» مثّلت إسرائيل في محافل دولية، هنالك من سألني: «شو عندك إشي شخصي ضدها؟». كنت أريد أن أبدأ إجابتي بجملة «رَدح»: «معها!؟ لا يا روح أُمك!». لكني أجبته: «قضيتي مع الاحتلال هي قضية شخصية».

من مدونة «زغرودة» (تنشر بالتزامن)
http://zaghroda.blogspot.com/

رحمة الموت!

في الانتفاضة الثانية، حاول الإسرائيليون اجتياح مخيم جباليا عدة مرات. كان عمري عشر سنوات ربما. وكانت ثقافة «الاجتياح» تطغى على قلوب الناس وكلامهم. في الخوف من الاجتياح، كانت المنافسة تشتد بين أمي وعمتها التي كان يدفعها الرعب من فقدان أبنائها إلى الخروج من بيتها إلى البيت الذي كانت أمي تأخذنا إليه: بيت جدي.

كانت الجملة نفسها تصدر عن أمي وعمتها. كانتا تحاولان بيأس طمأنة نفسهما من خلال طمأنة الآخرين: «الموت مع الجماعة رحمة». في كل وهلة صامتة، كانت هذه الجملة وحدها تكسر الصمت. ستظل هذه الجملة عالقة في رأسي وتشكل معلماً رئيساً من معالم طفولتي المنيلة بستين نيلة. لو سألتني ماذا تعلمت في طفولتك بالإضافة إلى دروس الحساب والقراءة فسأقول لك: تعلمت أن الموت مع الجماعة رحمة.

أنا أيضاً كنت أخاف. ولا أنكر أن ذهابنا إلى بيت جدي وقت الأزمات كان يجعل كل شيء أسهل. كان خالي قادراً على جعلنا نضحك وسط الرعب. جدتي فاطمة أيضا كانت عامل قوة لا يستهان به. كانت تشرح لنا أن إسرائيل جبانة وأنها شخصياً طردت أكثر من جندي حاول اقتحام البيت في الانتفاضة الأولى. ما صدقت أحداً في حياتي مثلما كنت أصدق جدتي فاطمة في تلك الأوقات.

من صفحة المدون محمود عمر على فايسبوك
Mahmoud omar